



إيبارشية جنوبي أمريكا للأقباط الأرثوذكس

ديسمبر ٢٠٢٠ م

الرسالة الشهرية للرهبان والراهبات

أنا الذي أحزنت قلبك بسروري بملاذ الدنيا الباطلة

فإحزني يا نفسي على خطاياك التي سببت لفدايك الحنون هذه الآلام. إرسمي جرحه أمامك وإحتمي فيه عندما يهيج عليك العدو^٦. قال شيخ مرة " أن تقع وتنجرح هو أمر إنساني، طالما أنه لو كانت حياة إنسان يوماً واحداً على الأرض فإن فكره يميل للشر منذ حدوثه. ولكن أن تسقط وتبقى ساقطاً فهذا ليس إنساني. التوبة تعيد خلقة الإنسان. لقد أعطيت لنا لكي تشفي النفس بعد المعمودية. لو لم تكن موجودة، لكان من النادر أن يخلص أحد. لذلك ليس لفضيلة التوبة نهاية طالما كان الشخص حياً، لأن الكامل فقط هو من لا يضل. يا أبنائي، في كل مرة ترون أفكاركم توجحكم على خطية ما، تناولوا الدواء على الفور: توبوا، ونوحوا، واعترفوا، وأنظروا ما أنتم تعودون إلى حالتكم السابقة بل وإنكم تعودون لحالة أفضل".

لم يأت المسيح ليدعو أبراراً بل خطاة إلى التوبة. عندما تدمر الفريسيون عندما كان ربنا متكئاً مع العشارين والخطاة، قال لهم: "أي إنسان منكم له مئة خروف، وأضاع واحدا منها، ألا يترك التسعة والتسعين في البرية، ويذهب لأجل الضال حتى يجده؟ وإذا وجده يضعه على منكبيه فرحاً، ويأتي إلى بيته ويدعو الأصدقاء والجيران قائلاً لهم: افرحوا معي، لأني وجدت خروفي الضال! أقول لكم: إنه هكذا يكون فرح في السماء بخاطيء واحد يتوب أكثر من تسعة وتسعين باراً لا يحتاجون إلى توبة". ألا ينبغي علينا أن نتشجع ونبتهج في قوة التوبة لأنه بواسطتها انحلت رباطاتنا، والحمل الذي يثقلنا رُفع عنا ووضع على حمل الله الذي يحمل خطايا العالم. التوبة هي أن نتصالح مع الله. يقول القديس يوحنا الدرجي: "التوبة هي تجديد المعمودية. التوبة عهد مع الله لبدء حياة أخرى. التائب هو من يتنازع التواضع. التوبة هي التخلي الدائم عن التعزيات الجسدانية. التوبة هي الحكم على الذات والاهتمام بالنفس دون الارتباك بأي شيء آخر. التوبة ابنة للرجاء وجحود لليأس. التائب مجرم غير مردول. التوبة مصالحة مع الرب بعمل الصالحات المضادة للزلات السابقة. التوبة تطهير للوجدان. التوبة صبر على كافة المكدرات"^٧.

^٦ . قسمة الابن: أيها الابن الوحيد...

^٧ . السلم - يوحنا الدرجي: المقالة الخامسة "في التوبة الدائمة المتواصلة..."

دعونا لا نخجل من التوبة والاعتراف، بل لنخجل من الخطية. فلا نياس إن كنا قد وقعنا بل لنعود ونتضع ونقول للرب: أي شيء آخر كان متوقفاً مني يا رب أنا الضعيف الخاطي؟ وبعد ذلك لنشكره لأن الخطية توقفت هنا، واعترف قائلاً: إنه لولا صلاحك المتناهي يا رب لما توقفت الخطية هنا بل كنت بالتأكيد وقعت في ما هو أسوأ من ذلك. يقول مار اسحق السرياني: "لقد أعطيت التوبة لبني البشر كنعمة فوق نعمة، لأن التوبة هي تجديد ثاني بواسطة الله، هذا التجديد الذي تلقيناه بجدية في المعمودية، نتلقاه كعطفة عن طريق التوبة. التوبة هي باب الرحمة، تفتح لمن يبحث عنها. بهذا الباب ندخل في رحمة الله، وبدون هذا المدخل لن نجد الرحمة 'لأن الجميع أخطأوا' بحسب الكتاب المقدس 'وتبرروا مجاناً بنعمته'. التوبة هي النعمة الثانية وتولد في القلب بالإيمان والخوف. الخوف هو قضيب الأب الذي يوجه طريقنا حتى نصل إلى الفردوس الروحي للأشياء الصالحة. كما أنه ليس من الممكن أن تعبر فوق المحيط الكبير دون سفينة، لذلك لا يمكن لأحد أن يصل إلى المحبة دون خوف. هذا البحر الفاسد العفن الذي يقع بيننا وبين الفردوس العقلي، يمكننا أن نعبره بقارب التوبة الذي يجذب به الخائفون. ولكن إذا لم تقم مجاديف الخوف بتجربة بالإقلاع بسفينة التوبة حيث نعبر فوق بحر هذا العالم إلى الله، فإننا سوف نغرق في البحر العفن. التوبة هي السفينة، والخوف هو الربان. الحب هو السماء الإلهية. وهكذا، يضعنا الخوف في سفينة التوبة، وينقلنا عبر بحر هذه الحياة الكريه (أي بحر العالم)، ويرشدنا إلى الميناء الإلهي الذي هو الحب. هنا يمضي كل هذا العمل، ويوجد كل المثقلين بالتوبة. عندما نصل إلى الحب، نصل إلى الله"^٨

دعونا لا نؤخر توبتنا، لأنها مفتاح التجديد، عودتي إلى الله، غسل خطاياي، ملكوت الله. حببنا قال أنه من يأتي إلي لا أخرجه خارجاً بأي حال من الأحوال. لقد وافق حببنا على أن يربط بالحبال لكي يخلصنا من رباطات خطايانا. باب التوبة مفتوح دائماً أمامنا. دعونا نتجرأ وندخل من خلاله، دعونا لا نأبه للشيطان عندما يقول إن خطايانا أكبر من أن يغفر لنا، فهو أب الأكاذيب. الله ليظهر لنا حبه الذي لا يقاس، عندما لم يجد تضحية أكبر من تلك، بذل ابنه الوحيد. دعونا لا نستمتع إليه عندما يقول إن أب اعترافك سينظر إليك باحتقار، إنه أب الأكاذيب. لا شيء يفرح قلب أب الاعتراف أكثر من رؤية أولاده الروحيين محلولين من كل أواصر الخطايا. دعونا نمزج توبتنا بالدموع مثل المرأة الخاطئة، فلا حتى اليوم تفتقر خزينته إلى المغفرة. إنه كامل كما كان دائماً، وهو الباب الذي سيفتح لمن يبحث عنه. من لديه آلام في جسده يجب أن يركض إليه وأياً كانت علامات الخطية الموضوعة على الروح ينبغي أن تحتمي به. فلنجلب الدموع تماماً مثل المرأة الخاطئة، إلى بيت الله. ولنقبل، مثلها، مغفرة الخطايا لأنفسكنا. فلنقبل بواباته ونقترب بالقرب من عتبته، تماماً كما فعلت هي. فلنرش بدموعنا أرض بيت الكفارة. هنا (في بيت الكفارة) يوجد يسوع

^٨ . عظات نسكية - القديس اسحق السرياني؛ عظة ٤٦

الذي أحبته المرأة الخاطئة. إنه يقف على أهبة الاستعداد لغفران الخطايا الخفية لأولئك الذين يدعونهم. الذي يحتاج إلى المغفرة عن أفعاله، فليرش الدموع على عتبه، وها هو يغفر له. الذي عضته الحية التي قتلت آدم، فليشرب كأس يسوع، الذي غلب سم الحية. الذي ترك علامة على روحه من خلال الإرادة الحرة، لديه طبيب سوف يشفيه مجاناً. الذي ضل عمداً وسقط، فليغرب أيضاً في القيام. لأنه اختيارك أن تسير أمورك وفقاً لرغبتك. قدم التماساً، تماماً مثل المرأة الخاطئة، وأحضره له. لأن فيه توجد رحمته كل يوم وكل لحظة. فلتبكي كما بكت، ولتحب كما أحبت، وسوف تحصل من العاطي على نفس الغفران الذي حصلت هي عليه. يسوع هو هو أمس واليوم وإلى الأبد. وتتماً مثلما غفر في السابق سوف يغفر أيضاً لمن يطلبه. بابه مفتوح، ومحبه مسكوبة على التائب. مبارك هو الله الحنان الذي لا يمكن وصف قصة رحمته⁹.

دعونا نرجع إلى أنفسنا ونعود إلى أبينا السماوي مثل الابن الضال. دعونا لا نياس عندما نسقط بل لنصرخ مع النبي قائلين: " لا تشمتي بي يا عدوتي، إذا سقطت أقوم. إذا جلست في الظلمة فالرب نور لي. أحتمل غضب الرب لأني أخطأت إليه، حتى يقيم دعواي ويجري حقي. سيخرجني إلى النور، سأنظر به. وترى عدوتي فيغطيها الخزي، القائلة لي: «أين هو الرب إلهك؟» عيناى سنتظران إليها. الآن تصير للدوس كطين الأزقة من هو إله مثلك غافر الإثم وصافح عن الذنب لبقية ميراثه! لا يحفظ إلى الأبد غضبه، فإنه يسر بالرفقة. يعود يرحمنا، يدوس آثامنا، وتطرح في أعماق البحر جميع خطاياهم" (مي ٧: ٨-١٠، ١٨-١٩). لقد أوصانا الرب أنه ينبغي أن نغفر لبعضنا البعض سبعين مرة سبع مرات. أئن يغفر لنا عندما نرجع إليه بتوبة واعتراف؟ بالتأكيد سوف يغفر: إن اعترفنا بخطايانا فهو أمين وعادل، حتى يغفر لنا خطايانا ويظهرنا من كل إثم" (١ يو ١: ٩).

يقول القديس يوحنا سابا (الشيخ الروحاني): أيتها الرحمة العظيمة، كم أنت سخية؟ هل يستطيع أحد ألا يتعجب من رحمتك يا رب؟ هل يستطيع أحد ألا يعترف بنعمتك؟ لقد أتيت لكي نولد نحن من رحم التوبة كما ولدت أنت من رحم أمنا الطوباوية العذراء مريم. لقد عشنا في شر وخطية، ولكن التوبة تستطيع أن تطهرنا وتغيرنا. يستطيع آدم أن يلد أبناءً مشاهين للعالم المادي من حواء، هكذا يستطيع يسوع أن يلد من المعمودية والتوبة أبناءً مشاهين للعالم الروحي. إنه يقول لنا: "توبوا لأنه قد افترب ملكوت السموات". كيف نجد التوبة إن كان الملكوت قريباً هكذا؟ التوبة هي أم الحياة، وطوبى لمن يولد منها فلن يموت أبداً. يدعو المسيح الجميع للتوبة، ولكن الشيطان يمنع الناس من سماع تلك الدعوة. تنقذ التوبة أسرى الخطية. التوبة تحول الزناة إلى بتولين. إنها نار تحرق الحشيش. إنها ماء للغروس المقدسة. إنها شفيعة المأسورين. من ذا الذي لا يحبك أيتها التوبة أنت التي تحمل كل البركات؟ الشيطان وحده هو الذي يكرهك لأنك سلبت ثروته، ومقتنياته، وجرده من ميراثه الذي سرقه من قبل. ما من أحد وضع رجاءه فيك وخزي. ما من أحد صعد إلى السموات

⁹ . عظة القديس يعقوب السروجي عن المرأة الخاطئة

بدونك. من ذا الذي يستطيع أن يرى الله بدون توبة؟ من ذا الذي تاب ولم يحصد ثمار الفرح؟ من ذا الذي لم يمسح وجهه بدموع التوبة ولم يعاين الله في قلبه؟ ما الذي أنقذ داود وأهل نينوى من الخطية حتى بعد حكم الله عليهم. مباركة أنت يا أم المغفرة (التوبة). لقد منح الله التوبة أن تكون شفيعة للخطاة. لن يغلق الله بابه أبداً لو سألته، لأنه أعطاك مفاتيح الملكوت. دعونا نتوب ونعترف من أجل ذاك الذي صعد على الصليب عرياناً ليكسونا بثوب بره. دعونا نتوب ونعترف من أجل ذاك الذي فتح جنبه بالحربة لكي ندخل فيه ونقيم في عرش نعمته، وحتى يسيل الدم من جسده لكي يغسلنا من خطايانا. يا إلهي، إن خطاياي هي الشوك الذي يوخز رأسك المقدسة. أنا الذي أحزنت قلبك بسروري بملاذ الدنيا الباطلة. نعم هو حُبك! هل رأينا حباً أعظم من هذا أن يموت الخالق من أجل خليفته؟ من أجل ذلك، أشكرك وتشكرني ملائكتك وخليقتك جميعاً لأنني عاجز عن القيام بمحمدك كما يستحق حبك. والآن أحني ركبتي قلبي متضرعاً من أجل مراحمك.

يا إلهي، إنني أشتاق أن يأتي غفرانك إليّ. أعطني دموعاً حتى أطلب الرحمة مازال يوجد وقت. إنني عطشان لرحمتك ولا أستطيع أن أوجد بدونها. يا بحر الرحمة، اسكب عليّ تيارات عطفك. إلقِ عني خطايا العالم الشرير المربكة. فلتحطمها يا رب برحمتك فأهرب. مثل كتيبة تتوق إلى الدماء، هكذا تحيط بي خطاياي. تعال، أيها المحارب القدير، لتغيث عاملاً وضيعاً. لقد أطلق ملك الخطية سهامه راغباً في موتي. أيها القائد، ضع عليّ دواءك حتى أشفى. خزيتك ليست أصغر من أن تعطي رحمة لأولئك الذين لا يستحقونها لأنه حتى عندما اقتربت منك امرأة خاطئة أحببتها بشدة. لأنه لا يطلب شفاءك سوى المنكسرين؛ وغير المحتاج لا يكثر لشيء ولا حتى للرحمة. هنا توجد بعض الجراحات: اجلب دواءك لكي يشرق عليّ لأنك تحب أن تسمع من المضروبين. إنك لا تطلب أجره في المقابل يا رب لأنه ماذا أعطت المرأة الخاطئة عندما أحببتها؟ لقد أعطت دهنًا ودموعاً فقط عندما شفيتها. لقد وعدت أن تمشح الجراح العظيمة بثلثين من زيت الزيتون. لقد أعطت المرأة المدنسة نهر النار الذي كان يهددها بدمعة واحدة رشتها عليه. لقد سقطت مياه عيني تلك المرأة المسكوبة بدون حساب على فيضان النار وأوقفته^{١٠}

في الختام، "باركي يا نفسي الرب، وكل ما في باطني ليبارك اسمه القدوس. باركي يا نفسي الرب، ولا تنسي كل حسناته. الذي يغفر جميع ذنوبك. الذي يشفي كل أمراضك. الذي يفدي من الحفرة حياتك. الذي يكللك بالرحمة والرأفة. الذي يشبع بالخير عمرك، فيتجدد مثل النسر شبابك. لأنه مثل ارتفاع السماوات فوق الأرض قويت رحمته على خائفه. كبعد المشرق من المغرب أبعد عنا معاصينا. كما يتأف الأب على البنين يتأف الرب على خائفه لأنه يعرف جبلتنا. يذكر أننا تراب نحن" (مز ١٠٣: ١-٥؛ ١١-١٤).

^{١٠}. عظة القديس يعقوب السروجي عن المرأة الخاطئة